تَرْتِيلةٌ جَائِعَة!

تَذُوْبِيْنَ
فِيْ هَدْأَةِ الرَّابِعَةْ
حَنَانًا
وأُغْنِيَةً مَاتِعَةْ

فَتُجْرِيْنَ فِيْ أَضْلُعِيْ
أَنْهُرًا
صَدَاهَا يَرِفُّ
إِلَى السَّابِعَةْ

تَصُبِّيْنَ
إِيْقَاعَكِ المُشْتَهَى
بِمَسْرَحِ رَغْبَتِيَ
الوَاسِعَةْ

هُنَا شَهْقَةٌ،
هَاهُنَا قُبْلَةٌ،
هُنَاكَ..
حِكَايَاتُنَا الضَّائِعَةْ!..
وَرَعْشَةُ ثَغْرَيْنِ
يَسَّوَّلانِ الغَرَامَ
بِتَرْتِيْلَةٍ جَائِعَةْ!.

إبراهيم حَلُّوش

جازان

اللوحة بريشة الفنانة: MELISSA MCKINNON

> تيقنت أن جشع (الأنا) هو سبب الحاجة الملحة المجنونة للمزيد والمزيد، وهو سبب انعدام تحقيق التوازن في توزيع الموارد بين البشر، وسبب الفقر والعوز والمجاعة في الأرض

إحدى الدراسات التي وقعت بين يدي، وهي دراسة تحليلية شاملة أجريت بمنهجية علمية دقيقة، أكدت أن النظرة المادية للحياة والتعلق بالأشياء المادية يؤثر سلبًا على صحة الإنسان الجسدية والعقلية والنفسية، بل ويزيد من نسبة حدوث الاكتئاب والتوتر، ويؤثر سلبًا على تقييم الإنسان لذاته واحترامه وتقديره لها، كما يؤدي إلى زيادة العادات والسلوكيات الاستهلاكية التي تضر بالصحة، وبشكل عام فإنها تؤثر سلباً على جودة الحياة.

واستعرضت هذه الدراسة أبحاثًا ودراسات من 120 مجلة ومنشورة علمية على 148.413 مشاركًا من 44 دولة يمثلون جميع القارات، وقد قدمت هذه الدراسة تصورًا شاملاً لمفهوم الماديات الذي لا يقتصر على المال، وإنما يشمل اعتقاد الإنسان وإيمانه بفوائد الماديات وقدرتها على جلب السعادة والشهرة وتحسين الصورة الاجتماعية.

كما بينت الدراسة أن التبعات السلبية حدثت بغض النظر عن التشكيلة السكانية أو الصفات الشخصية، وأنها تحدث في جميع المجتمعات عبر الكرة الأرضية باختلاف اقتصادياتها وقيمها الحضارية والثقافية، وإن كانت العلاقة أقوى في الشعوب والدول الثرية وذات الوفرة المادية وكذلك الرأسمالية والدول التي يعد السعي وراء المتعة من أولوياتها، وكذلك الدول ذات التوجه المادي والقيم المرتبطة بها مثل الهرمية والتفاوت في توزيع الثروات والذين لا يبالون في تحقيق الانسجام بين شرائح المجتمع وطبقاته. وقد دُعمت هذه الدراسة المرجعية الشاملة من منحة مجلس الأبحاث الاقتصادي الاجتماعي بالمملكة المتحدة (UK Economic and Social Research Council ESRC).

تيقنت أن جشع (الأنا) هو سبب الحاجة الملحة المجنونة للمزيد والمزيد، وهو سبب انعدام تحقيق التوازن في توزيع الموارد بين البشر، وسبب الفقر والعوز والمجاعة في الأرض.

مشاهدة ومحياي (الأنا والأشياء)
اضغط هنا

نظرت لنفسي وللناس من حولي فأدركت كيف أننا قد لا ندرك كثيرًا من تماهينا مع الأشياء ومع ما نملك، حتى إذا فقدناها انكشف لنا مدى تعلقنا بها وتعريف ذواتنا من خلالها ورؤية هويتنا فيها.

قررت أن أتعمق وأن أختبر علاقتي بعالم الأشياء والممتلكات من خلال مراقبتي الذاتية لنفسي.. هل إحساسي بقيمتي الذاتية مرتبط بأشياء أمتلكها؟ هل تهبني الأشياء إحساسًا ولو طفيفًا بالتفوق والتميز والأهمية؟ وهل فقدانها أو الحرمان منها قد يشعرني بشيء من الدونية، أو أنني أتسامى فوقها وأعلم أنه ليس لها علاقة بماهيتي وذاتي الحقيقية.

قررت أن أضاعف الجهد في مراقبة علاقتي بالأشياء، فوجدت أنه على قدر المراقبة يوقظ في داخلي وعي قادر على تحديد مواطن الارتباط والعلاقة غير الصحية بيني وبين الأشياء.

لقد هالني مدى تعلقي بالأشياء، وبدا لي سبب حضور تلك الومضة من مقطع الفيلم الذي شاهدته قبل ثلاثين عامًا في كل مرة أشتري فيها شيئًا جديدًا، خاصة عندما يكون ذلك الشيء أقرب للكماليات منه للأساسيات.

أعتقد أنني اليوم أكثر وعيًا بطبيعة علاقتي بالأشياء. وهذا الوعي أصبح دافعي لتصحيح هذه العلاقة وإعادة الأشياء إلى مكانها الصحيح كوسيلة لا غاية وكخادم لا سيد. نعم أعتقد أنني أكثر وعيًا أو هكذا يبدو لي، وقد أكون مخطئًا، فالأنا ماكرة خادعة ما إن تطردها من باب حتى تأتيك من باب آخر، وقد تشعرك بما تريد فقط لتحصل هي على ما تريد.

> إنها (الأنا) التي خسفت بقارون الأرض، و(الأنا) التي أحاطت بصاحب الجنتين، ولكل زمان قارونه وصاحب جنتيه، تتغير الصور والأشكال والأحوال والأزمان، ولكن أصابع الإتهام كلها كانت وما زالت تشير للـ (أنا) في الإنسان.

أن نمتلك الأشياء ونستخدمها ونسخرها لعمارة الإنسان والأرض، فهذا خير كبير، وقد أسمى الله المال بالخير في القرآن، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير" وقال "نعم المال الصالح للمرء الصالح" ولكن الشر كل الشر أن نصبح نحن مملوكين لما ظننا أننا نملكه، أن تصبح الأشياء في قلوبنا بدلاً من أن تكون في أيدينا، أن نُعرف أنفسنا بها، أن تصبح هويتنا وأن ننشغل بها عن ذواتنا الحقيقية حتى لا يعود في وسعنا الإحساس بالحياة.. هنا استحضرت مفهوم الزهد كما عرفه سيدنا علي رضي الله عنه عندما قال "الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك". أي أن نمتلك الأشياء بأيدينا لا بقلوبنا فنملكها ولا تملكنا.

توصلت إلى نتيجة أن المشكلة ليست في مضمون الأشياء ولا في ما تبحث عنه (الأنا) وإنما هو في بُنية (الأنا)، وطبيعتها الجشعة، فلا يوجد مضمون أو شيء من الأشياء يمكن أن يشبعها ما دامت البنية التحتية لإنسان (الأنا) هي على حالتها لم تتغير.

إنها (الأنا) التي خسفت بقارون الأرض، و(الأنا) التي أحاطت بصاحب الجنتين، ولكل زمان قارونه وصاحب جنتيه، تتغير الصور والأشكال والأحوال والأزمان، ولكن أصابع الاتهام كلها كانت وما زالت تشير لـ (أنا) في الإنسان.

سألت نفسي: ترى ماذا سيحدث لـ (أنا) هناك؟ أعني على فراش الموت.

لا بد أن كل إنسان سيدرك آنذاك لا محالة أنه لم يكن في يوم من الأيام شيئًا من الأشياء التي كان يعرف نفسه من خلالها ويظن أنه هي، فالموت سيجردك ويعريك من كل شيء هو ليس أنت، وسندرك آنذاك أن ما كنا نبحث عنه طوال حياتنا كان موجودًا دائمًا معنا في كل زمان ومكان وحال، ولكنه كان محجوبًا عنا بتماهينا وتعلقنا بالأشياء.

إن إحساس (الأنا) الناقص بالذات هو حرمان داخلي دائم ومزمن لا يشبعه شيء، ويظل ينتقل من شيء إلى شيء آخر يعده بإشباع أكبر، ولكن هيهات لـ (أنا) أن تشبع، هنا تجلى لي البعد النفسي العميق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضرته وكأني أسمعه لأول مرة في حياتي، قال صلى الله عليه وسلم: "لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولو أن له واديين لتمنى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب".